(٦)

السعادة

مفتاحها وطريقها وسرابها

حديث الجمعة

١ شعبان ١٣٧٩ هـ - ٢٩ يناير ١٩٦٠ م

يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد. من لا خير فيه لنفسه فلا خير فيه للناس. ابدأ بنفسك.

عباد الله: تأملوا في أنفسكم، واقرأوا كتاب الله بين جوانحكم، وتحسسوا آياته في أحاسيسكم. فالحق الذي تنشدون، والذي تذكرون، والذي لا تنكرون وله تعرفون، منكم قريب ولكم مجيب. فإذا لم يكن الحديث في الله، والفهم عن الله، يدور حول أنفسكم منه، والفهم عنكم فيه، فلا خير فيه. ولا حق فيه. ولا ذكر فيه.

وإذا لم يكن حديثكم عن رسول الله شارحا لكم أمر أنفسكم في الله، وأمر أنفسكم من رسول الله، وأمر رسول الله من أنفسكم، فهو حديث فارغ من الحياة ولا خير فيه.

إذا سمعتم لخبير عن الرحمن يتحدث عن الديان من الله، فهو إنما يتحدث لكم عن أمر لستم منقطعين منه، ولستم غائبين عنه، وليس عنكم ببعيد، فهو إنما يتحدث إليكم عن أنفسكم. وإذا تحدث خبير بالله عن رسول الله، عن عبد الله، عن الكلمة التامة في الله، عن الحق من الله، عن إشراق وجه الله، عن امتداد يد الله، فإنما يتحدث لكم عن أنفسكم، ما تكونون في الله، وما يكون الله فيكم، وما يكون الله بكم، وما تكونون بالله!

إذا لم يكن لهذا الحديث عمل فيكم من حرث أرض قلوبكم، وريها، وتلقيحها، وزرعها، وتعهدها.. إذا لم يكن في هذا الحديث ثمار تجني من هذه الأرض، وحب يحصد من هذه المزرعة، فهو حديث فارغ من الحياة ولا خير فيه.

فإذا ما تحدث صادق عن الله ورسوله، وكشف عن حقائق الله ورسوله، وتحدث باسم الله ورسوله، وأفاض من اسم الله ورسوله، وظهر باسم الله ورسوله، فهو إنما يتحدث إليكم عنكم لا عن نفسه، ولا عن الله ورسوله. تعالى الله ورسوله عما يصفون! وتعالى الله ورسوله عما يشركون! وتعالى الله ورسوله عما يزعمون!

فكل حديث عن الله ورسوله تحدث به متحدث باسم الله ورسوله، قائم باسم الله ورسوله، ملتصق لاسم الله ورسوله، إنما هو فيض كلمةٍ لله ورسوله، وترجمانا لله، ومظهرا لعظمته، وتدانيا لرحمته، فهو إنما يتحدث إلى الناس بما عرف وبما به شَرُف، بقدر ما أحاط في نفسه مما أحاطه الله به من علمه، فيما أحاط به من نفسه عبد الله ورسوله.

فإن كمل صدقه، فقد عرف وآمن وأيقن أن الله هكذا يفعل للناس، وأن الله هكذا يقوم في الناس، وأنه إلى هذا ينتهي الناس إذا استيقظوا من غفلتهم، وانقضى تعثرهم في مشيتهم، ولم يتوانوا عن القيام من كبوتهم.

إن إيمان الرسول عن الحقيقة يتقابل مع إيمان الناس عن الخليقة. وطلب الرسول لنفسه تتخلق، هو عين طلب الناس لنفوسهم تتحقق.

إن الرسول وهو العديد القائم، وهو الأزلي الدائم، وهو السرمدي الظاهر، وهو العبد الأزلي المرتضى، وإن كان كل الناس إلا أنه لا يختفي بين الناس له ثياب. وما خرج الناس في رحمة الله وعطائه - إذا أسعدتهم العناية - أن يكونوا له جلبابا. فهو القيام المتجدد في كل ساجد لله، وهو منقلب الخلق إلى معاني الحق، وهو معاني الحياة تطرق القلوب في هياكل الفناء من صور الخليقة.

إن الناس يبحثون عن السعادة. إن الناس يبحثون عن الحياة. إن الناس يبحثون عن المعرفة وكلهم ضال عن الطريق إليها، مباعد لها مظاهر، في مسيره إلى قبلتها. والسعادة، والحياة، والحقيقة، والعناية، والرحمة بين جوانحه قابعة، وهي في قلبه، وهي في نفسه، ولكن الناس لا يوجهون أنظارهم إلى هذا الأمر القريب، {ونحن أقرب إليهم من حبل الوريد}[1]، ويبحثون عنه فيما يحيط بهم من ألوان الحياة وصورها في هذا العالم.

يبحثون عن السعادة في المال، ويجدُّون السعي حتى يتحقق لهم كسب المال، وحتى يتراكم عندهم المال، فيعرفون أنه لا سعادة في المال. وبذلك يستهلكون هذا الجهد وهذا الزمان حتى يصلوا إلى هذه العبرة، وقد لا يصلوها حتى بعد أن يحققوا لأنفسهم الأمر الذي لا يحقق لهم سعادة.

يرى الناس السعادة في الجاه فيسيرون ويجدون لكسب الجاه، فإذا ما تحقق لهم الجاه على ما أرادوا أدركوه على حقيقته بعد كسبه والقيام فيه، إذ يجدون فيه عناء ومشقة، وأنه لا يحقق لهم في الحياة سعادة، ولكن (الصيف ضيعت اللبن)[٢]. لقد ضاعت الحياة هباء لأمر لا هناء فيه ولا سعادة فيه.

ويرى أناس السعادة في الصحة وسلامة الأبدان فيتعهدون أبدانهم، ويُعبِّدون معانيهم لها فتنمو أجسادهم، وتصح أعضاؤهم، ويرون أنهم في حال كمال مما إليه هدفوا وله طلبوا، ولكنهم لا يجدون في هذه الصحة ما كانت تصبو إليه نفوسهم من تحقيق السعادة. ولكن قد ذهبت الأيام وبُذل المسعى وفرغ الجهد، ولا سعادة.

أناس يرون السعادة في الأطفال فيعملون لذلك فيتواجد لهم الأطفال، ويفنون أيامهم وحياتهم وأنفسهم وأموالهم لإسعاد أنفسهم بإنماء وتهذيب هؤلاء الأطفال. فإذا هؤلاء لا يحققون لآبائهم سعادة، بل يضاعفون عليهم من أعباء الحياة. وقد يعنونون عندهم معاني خيبة الرجاء، وسوء الجزاء، فلا تتحقق لهم بهم في الحياة سعادة.

وهكذا.. وهكذا.. كل يسير في درب يرسمه لنفسه، ويوجده من خلقه ووضعه، ويفرضه على نفسه، ويفرض السعادة فيه بوهمه، وبسوء إدراكه، وبالتوائه عن هدي ربه وعن سنة رسل ربه، وعن كتب ربه، وعن فطرة قرب ربه، وعن ملائكة ربه، وملكوت ربه بين جوانحه وفي قلبه.

إذا لم يسعَ المرء لجلوة قلبه بذكر ربه ليكون مرآة له تنعكس فيها حقائق كسبه، وتتكشف فيها له ظلمات وجهه، وتجاعيد هَمّه، وقوة أو ضعف خطوه، فقد ضل الطريق، وحُرِم الرفيق.

إن كل قلب لكل إنسان إنما هو قبلته، وهو إذا استيقظ، وهو إذا استجاب، وهو إذا أدرك ساحة الله له في نفسه، وأن العبودية لله، وأن الربوبية من الله، وأن عالم العبودية لله، وعالم الربوبية لله، وعالم اجتماع حقائق الله، إنما هو في ذات الإنسان وفي نفسه. فربوبية الله عليك، منك فيك. والعبودية لله منك، إليك فيك، وإن {الله قائم على كل نفس بما كسبت}[٣]، ومن كسب الله، ومن أدرك قيام الله، ومن ربط قيامه بقيام الله، من وحد الله، من آمن بالله واحدا لا شريك له من نفسه، لا شريك له من أمره، ولا شريك له من ذاته، ولا شريك له من عقله، ولا شريك له من وجوده، تجلى الله له إليه في قلبه، بلطيف أمره، وبشامل نوره، وبجهر سره، وبمعروف منكوره، وبمشهود مخبوئه.

إن القلب الحي مرآة مجلوة يشهد فيها صاحب المرآة وجهه وجها مشرقا بالله، مشرقا بنور الله الذي هو من وراء كل نفس محيط.

ما قال لكم عيسى، وقد ارتفعت بينه وبين الآباء الحجب، وجوها لله في أب له، إن هذا أمر اقتصر عليه. وجاءكم محمد يؤكد مقالة عيسى من أنه المثل المضروب لثمرة البشرية من الحقيقة الإنسانية من حقائق الله، مبينا أن اليتيم المتحرر من روابط المادة الذي طلب أن ينتسب إلى الأسرة المباركة من الإنسان، كان الله له أبا، وكان الله له أما، ومن تابعه رأى في رسول الله له أبا وأما، ورأى في رسول الله، وهو له الأب والأم، حقائق الله، وحقيقة الله الكبرى، من أنه يأوي إليه يتامى المادة، ويتامى الكون، ويتامى الظاهر، ويتامى الناس، وأن هؤلاء المستضعفون في الناس من اليتامى لا قهر عليهم من حقائق الله، ولكن الله بهم قاهر. {وهو القاهر فوق عباده}[٤].. فهو القاهر بعباده.. لأنه بعظمة رحمته، وبعظمة كبريائه، وبعظمة قدرته، لا يطيق الكون قهره. وإن قهرت الرحمة فيه قضاءه وعدله. ولكن الظاهر بالقهر منه إنما هم عباد له...

يتامى الوجود.. آواهم وعمل بهم.. وظهر فيهم لهم.. وظهر بهم لغيرهم.. {فأما اليتيم فلا تقهر}[٥].

أغناهم غناء لا يحجمون به عن إجابة سائل، وإن أساء وإن أخطأ. {وأما السائل فلا تنهر}[٦]. ما سألك سائل فأجبه، أنفق بغير حساب. لا تعطي بناء على استحقاق، فالاستحقاق قائم في المسألة. {فامنن أو أمسك بغير حساب}[٧].

ظهر لنا رسول الله رسولا من الله، قبل أن تعنونه ذات الكلمة الكاملة في تمامها. ظهر لنا رسول الله في أبينا آدم. وظهر لنا رسول الله في أبينا نوح. وظهر لنا رسول الله في أبينا إبراهيم. وظهر لنا رسول الله في أبينا عمران. وظهر لنا رسول الله فيمن ذكر له ممن أخذ الله منهم الميثاق له. وظهر بمن ظهر لهم فيمن لم يذكروا له.

إن رسول الله قائم بقيام الله. فاعل بفعل الله. قديم بقدم الله. باق ببقاء الله. ظاهر بظهور الله.

إن رسول الله هو الحق الظاهر من غيب الله. إن رسول الله هو غيب ما ظهر من حق الله. إن رسول الله هو قضية الله، وقضية الحياة، وقضية الناس، وقضية الخلق، وقضية الحق.

إذا لم تعرفوا عن رسول الله فلن تعرفوا عن الله. وإذا لم تعرفوا عن رسول الله فلن تعرفوا عن أنفسكم من الله.

إن رسول الله هو مناط كل معرفة، وهو بداية كل معرفة، وهو بداية كل خليقة، وهو بداية كل حقيقة.

إن رسـول الله هو نهاية الخليقةكما هو بدايتها. وهو النهاية إلى الحقيقة كما هو بدايتها. وهو قيام الحياة كما هو نشـأتها. وهو سـر السـعادة وبدايتها.

إن رسـول الله هو باب كل منشـود من الله. وهو باب كل معرفة في الله. هو باب كل طريق إلى الله. هو باب كل دار يؤول إليها الأمر في ملكوت الله. إنه أمر في الله، مدانٍ مع معية الله، ما دانت الحقيقة كائنا من خلق الله. وإنه قائم مع الله رسـولا له على كل نفس قـام عليها الله. إنه معنى في الله، وأمرٌ في ملكوت الله.

فلا تغيبوا الله ورسـوله عن أنفسـكم. فأنتم في حقائق الله من الله ورسـوله الحقيقة السـالبة.. الحقيقة القائمة لله ورسـوله.. الحقيقة التي تحيا بالله ورسوله. الكون الذي يظهر فيـه الله ورسـوله. آدم الله ورسـوله. كلمة الله ورسـوله. روح الله ورسـوله. قدس الله ورسـولـه. كعبة الله ورسـوله. جارحة الله ورسـوله. سـر الله ورسـولـه.

إن التعديد والتوحيد إنما هو تعديد لله ورسـوله، وتوحيد لله ورسـوله، فإذا وحدنا الله فإنما نعني أننا لله ورسـوله، وأننـا لسـنا إلا الله ورسـوله. وإذا عددنا، ذكرنا الله، وذكرنا رسـول الله، وذكرنا أنفسـنا، فمجالات لله ورسـوله هو ما نعني بالتعديد.

أما إذا ذكرنا الله وحده وأسـقطنا أنفسـنا ورسـوله، فإنا لله وإنا إليه وجوه لله وإنا قيام لله وإنا حقـائق لله. يكمن فيها أنانا ورسـول الله. ويبقى الله وحده في مقام ظهوره. وإن ولوا على أدبارهم نفـورا.

إن القلب منا أرض الحياة وبه عين ماء الحيـاة، وصفاؤه مرآة الحيـاة، وميدانه مجلى الحيـاة، ومنه بداية الحيـاة. إن الله يبدأ الكون مع كل كائن منا. إن الله الذي يخلق له صورة يتجلى بها على الخلق يوم القيامة كما قال رسـول الله إنما هو خالق لهذه الصورة مع كل مخلوق منا.

{وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى}[٨]. ألسـت المحيط من ورائكم؟ ألسـتم وجوها لي تنظرون إلى وجوه لي، هي منكم وأنتم منها، وهي لكم وهي إليكم؟ إن العبودية والربوبية ما هي إلا صفات في الإنسـان في الله. تعالى الله عما يصفه به الجاحدون! فما ظهر الله مثل ظهوره في الإنسـان عبدا وربا. وما ظهر الله بالإنسـان لأبنائه إلا أبا. وما ظهر الله للأب فيه إلا ابنا. عرف آدم عن الله بكلمات الله من أبنائه أصبح بهم أوادم منه علاما للغيوب. وعرفت كلمات الله من أبنـائه الله في علام الغيوب من آبائهم من الأوادم في الله.

فسبحان الله وتعالى عما يصفون! جلت قدرته ودانت الكل رحمته. ها هي رحمته مدانية، في شامل رسالتها، وفي روح قدس حضرتها، بما يطالعنا وما نشهد في هذا الزمان، من روح الله مقاربة في كل مكان، يدا لله منبسطة طوت الأرض والسماء فسبحان الله جلت قدرته وشملت رحمته!

عباد الله: اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ...

عباد الله: استغفروا الله من شرور أنفسكم ومن شرور مجتمعكم، يهديكم الله ويصلح بالكم. وارجعوا إلى الله برجوعكم إلى أنفسكم. فلا تباعدوا بينه وبينكم واشهدوه واحدا لا شريك له، في حكمته وتدبيره، واحدا لا شريك له، في سلطانه وتقديره، آمنوا أنكم (لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع)[٩]. نشكره ونحمده ونسأله الرحمة لنا ولأمتنا ولإنسانيتنا ولأرضنا.

اللهم إنا نستغفرك ونلجأ إليك. اللهم حسبنا أنت ونعم الوكيل، عليك نتوكل وبك نتسربل. اللهم أصلح أمورنا حكاما ومحكومين. وتولنا برحمتك مهتدين وغافلين، وخذ بيدنا مظلومين ومعتدين.

اللهم ولِ خيارنا أمورنا، ولا تولِ أمورنا شرارنا، وارفع عنا مقتك وغضبك، وعافنا من إقامة عدلك فينا، وعاملنا برحمتك وبرك، ووفقنا وسدد خطانا قوادا ومقودين، حكاما ومحكومين برحمتك يا أرحم الراحمين.

أضواء على الطريق

(انظروا فيما حول عوالمكم. اقرأوا العلامات. تذكروا الإنذارات، والبشريات القديمة من السماء. انظروا اليوم إلى تحطيم المذاهب والعقائد المهلهلة. انظروا كيف انحل نسيج علم اللاهوت في عصركم. إن البناء الذي أقيم على أساس من الإيمان الزائف يهوي في كل مكان حواليكم ...

إن ما نبينُه اليوم لكم إنما نبينه على أساس من المعرفة وليست هناك عاصفة مهما اشتدت يمكنها أن تهب لتهز الأسس التي بنينا فوقها لأنها هي الحق، هي الحق السماوي الخالد. فلا تخشوا شيئا على البناء بعد أن تتوقفوا عن التسجيل في عالم المادة فإن المعبد الذي عاونتم على إقامته سوف يصمد آمنا، ذكرى عطرة لأعمالكم.

الحق يسير إلى الأمام وقوى الظلام والجهل والأحاجي والكهانة تتقهقر. إن النصر في جانب الروح التي تشتد قواها وتفتح أماكن كان فتحها يعتبر مستحيلا. تلك هي الرسالة العظيمة التي نكررها لأنكم جميعا تعملون لهذا الأمر الجديد للحياة. إن التغير يأخذ مجراه الآن ببطء شديد وعند ما يخلي القديم مكانه للجديد سوف يحدث كثير من الانفجارات، إنها جميعا جزء من خطة مرسومة)

من هدي السـيد الروح المرشـد (سـلفربرش)

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة ق - ١٦

٢ وردت القصة في روايات مختلفة تلتقي في فكرتها الجوهرية: الخيرِ المُضيّع بالطَّمع، أو فيمن ضيع الفرصة وفوّتها. ورد المثل في (مجمع الأمثال) للميداني.

٣ سورة الرعد -٣٣

٤ سورة الأنعام – ١٨ ، ٦١

٥ سورة الضحى - ٩

٦ سورة الضحى - ١٠

٧ سورة ص - ٣٩

٨ سورة الأعراف - ١٧٢

٩ مقولة من الشائع أنها لعمر بن الخطاب بلفظ: "ولو أنّ الله كشف لنا حُجب الغيب، ما اختار إنسان لنفسه غير ما اختاره الله له". لكن لم نجد لها سندا.